اللغـــة . . والوطن . . .

للأســـتاذ ـزينى خشبة

يوشـك الداء الوبيل ا ـ تفشى فى إفريقيا الشمالية ، ولا سيما فى تونس والجزائر ، ـ يتفشى على الصورة نفسها فى سوريا ولبنان . وها نحن أولا نرى جراثيمه فى دور الحضانة فى مصر . . .

يوشك هذا الداء الوبيل ى زعزع أركان اللغة العربية فى تونس والجزائر ، أن يزع ع أركان هذه اللغة فى سوريا ولبنان ، لأن العلية من إخو السوريين واللبنانيين يعدون اللغة الأصلية التى يأخذون بها ـفسهم وأبناءهم منذ الطفولة هى اللغه الفرنسية ، فهم يحلو ـحل العربيـة فى مدارسهم ومعاملاتهم وأحاديثهم ، وبالتا فهم يفكرون بها ، ويعزجون بها دماءهم ، ويملأون بها أ ـهم ، ويقومون بهـا ألسنة أطفالهم ، حتى ليستطيع الطفـ السورى أو اللبنانى أن يحاورك بالفرنسية فى سهولة ويسر ، ـى حين أنه يعجز عن فهمك ومبادلتك الحديث إذا قصرت ـاطبة على اللغة العربية

ويجب قبل كل شىء أن ـلنا هذه القضية عن كل تأويل يصح أن يؤول به الدافع الـ ـحدا بنا إلى الكتابة فى هذا الموضوع الذى عزمنا على الخـ ـض فيه عقب دعوة جمعت بين أسرتنا المصرية وبين أسرة سو ـة كريمة عرف اثنان منها على الأقل ، فى العالم العربى كله ـ ـوخ القدم فى الفكر والأدب والاجتماع ومنهما إحدى زعيـ ـت النهضة النسائية العربية فى الشرق الأدنى . فلقد هالنى ـن أرى السيدة النبيلة تخاطب أطفالها بالفرنسية فيجيبوها ـ انطلاق عجيب أكد لى أن هؤلاء الأطفال قد ثقفوا الفرنـ ـية قبل أن يشدوا العربيـة . . .

وهـذه هى القضية التى أطرحها أمام القراء اليوم ، وأمام الرأى العربى العام فى جميع الشعوب العربية ، لما فيها من الخطر الجسيم الذى نستهين به أول الأمر ، ثم لا يلبث أن يجتاح كل مقوماتنا من لغة ودين وعادات ووطنية ، ثم يؤدى آخر الأمر إلى الانسلاخ من الشرق ، والضياع بين الأمم ؛ لأننا مهما أتقنا الفرنسية فلن نصبح فرنسيين ، ومهما استبدلنا الإنجليزية بالعربية فلن نكون من الإنجليز ولا كالإنجليز ، ولن نجنى على أنفسنا إلا شراً مستطيراً وبلاء كبيراً كهذا الشر وذاك البلاء اللذين تنص بهما تونس والجزائر اليوم

وأنا إن كنت أخص سوريا ولبنان بالذكر فلست أصدر فى ذلك إلا عن هذه المحبة التى أكنها ويكنها كل شرقي مخلص لهذين القطرين الشقيقين اللذين كانا فى عصر مجيد من عصور هذا التاريخ العربى ، كعبة اللغة العربية ومحور الثقافة العربية ، وقطب الرحى فى الشعر العربى ، عنهما تأخذ كل الأقطار العربية ، وإليهما تهفو قلوب العرب ، وفيهما يخفق القلب العربى بالحكمة والسياسة والشعر والنثر والرواية والقصة وعلوم الشريعة وما إلى ذلك كله من الأمجاد العربية . . .

١ — وبعد . . . فما الدافع يا ترى إلى تمسك الآباء والأمهات فى هذين القطرين العزيزين بتعليم أطفالهم الفرنسية قبل أن يثقفوا العربية ؟ هل هو هذا الاستعلاء السخيف الذى تأخذ به أسر مصرية كثيرة ، والذى مظهره عدول هذه الأسر بأطفالها عن المدارس المصرية إلى المدارس الأجنبية التى ما فتحت أبوابهـا فى مصر والشرق إلا للاعتداء الصريح على قومياتنا وأدياننا ولغتنا واستقلالنا وكراماتنا ؟ أو هو سبب اقتصادى يتعلق بمستقبل هؤلاء الأطفال فى أوطاننا التى يغزوها الاقتصاد الأجنبى غزواً يريد اليوم أن يتحكم فى وسائل التعليم كما حاول من قبل أن يتحكم فى كل شىء آخر ؟ ! أو هو قصر نظر منا نحن الشرقيين حين تبهرنا بهـارج الغرب الزائفة ، فنقع كالفراشة فى نارها دون وعى ولا تدبر ولا تفكير ؟

الهم إن كان السبب هو هذا الاستعلاء الذميم عن أن يبدأ أطفالنا التعلم باللغة العربية لا لشىء إلا أنها لغة عربية . . . وما يتصوره التعساء منا من أنها لغة الفقراء ، أو لغة الطبقة الثالثة ، فلشد ما نرتكب بهذا التصرف الخيانة الوطنية العظمى ضد وطننا وضد الشرق وضد العروبة

أما إن كان هو السبب الاقتصادى فيما يتعلق بمستقبل

الأطفال فى ذاك الوسط الذى يغزوه الاقتصاد الأجنبى ، فعلاجه شىء آخر ليس هو البدء بتعليمهم اللغة الأجنبية قبل أن يثقفوا لغة بلادهم الأصلية

أما إن كان قصر نظر منا معاشر الشرقيين ، فعلاج ذلك إعلان الحرب عليه ، والأخذ بسياسة جديدة فى تعلم اللغات الأجنبية

٢ — ولعل انتشار مدارس البعثات الدينية هو أكبر الوسائل التى أدّت إلى إهمال اللغة العربية كأداة أساسية من أدوات التعليم ، إذ تُعلّم معظم المواد ، بل كلها ، فى تلك المدارس بلغة أجنبية ، ومن هنا تنقطع الصلة بين الطفل وبين لغة بلاده ، بل بينه وبين بلاده ، ووطنيته ، ودينه ؛ ومن هنا أيضاً استخفاف الطفل ، حين يصبح رجلاً ، والفتاة ، حين تصبح أمًّا ، بالشرق ، وباللغة العربية ، وبما يتصل بالشرق وباللغة العربية من ثقافة وعادات ودين . ومن هنا أيضاً نظرة المتعلمين من هذا الطراز إلى إخوانهم الشرقيين على أنهم برابرة متوحشون . ومن هنا أيضاً عداؤهم المر للغة العربية وثقافة اللغة العربية ولكل ما له صلة بالعرب . والعجيب فى أمرنا أننا نقبل على التعلم فى تلك المدارس إقبالاً شديداً ، ونحن نقبل ذلك الإقبال الشديد لسببين ، أولهما أننا لا نجد من المدارس الوطنية ما يقوم بمهمة تعليم أطفالنا ، والسبب الثانى هو هذا اللألاء الكاذب الذى نضفيه على تلك المدارس الأجنبية ، والذى لا تستحق منه إلا ما يعدل أغراض تأسيسها التى أشرنا إليها

٣ — وقد كانت النتيجة الأولى لهذا البلاء أن نشأ أبناؤنا الذين تعلموا فى هذه المدارس وهم أضعف ما يكونون فى اللغة العربية ، فهم يخطئون فى نحوها ، ويخطئون فى التعبير بها ، وإذا كتبوا بها رأيتهم يكتبون كلاماً عربياً فى مظهره سبقه تفكير بلغة أجنبية ؛ وهنا يبدو الشذوذ فى التراكيب ، وتشيع الركاكة فى الأساليب ، ويلتوى الفهم ، وتمتاص على القارئ متابعة الكاتب ، فيزور عنه ، ويضيق به ، ثم يطويه وفى نفسه من الهم والحسرة على اللغة العربية ما فيها

وإذا قلت إن آثار ذلك بادية مع الأسف الشديد فى كثير من أقلام الصحافة اللبنانية والسورية فإنما أقوله ولا أقصد مطلقاً أن أعيد إلى الأذهان هذا الحديث السخيف عن الزعامة الأدبية بين لبنان ومصر ... إنما أقوله وبنفسى من المحبة للبنان ولسوريا ما لا يقل عن محبة اللبنانيين والسوريين بلادهم التى نفتديها بالمهج ، وأقوله لأن قضية اللغة العربية هى قضيتنا جميعاً ، وقد قدمت أن هذا الداء الذى يوشك أن يزعزع أركان اللغة العربية فى لبنان وفى سوريا قد بدأت جراثيمه دور حضانتها فى مصر ، فكثير من الأسر المصرية تتخاطب فيما بينها بالفرنسية من غير ما ضرورة تلجئهم إلى ذلك إلا الاستعلاء الذميم على أشرف لغات الأرض والسموات ! وقد تعلم أبناء هذه الأسر فى مدارس تشبه المدارس المنتشرة فى سورية وفى لبنان

٤ — ولعل جريرة ذلك تقع على كاهل الحكومات العربية بقدر ما تقع على كاهل الشعوب العربية نفسها ، فتقصير الحكومات فى فتح المدارس الوطنية ، ولا سيما للبنات ، هو الذى ألجأ الأهالى إلى إرسال أبنائهم إلى تلك المدارس الأجنبية ، وقد زاد الطين بلة ترك الحرية لهذه المدارس كاملة فى اختيار طرق التدريس ووضع المناهج وتكييف التلاميذ فيها حسب ما تشتهى ! ولعل الذى كان يحدث فى هذه المدارس فى مصر إلى عهد قريب جداً من تدريس جغرافية فرنسا وتاريخها لصغار الأطفال المصريين ، وإهمال التاريخ المصرى والجغرافية المصرية هو نفسه الذى كان يحدث فى مثل تلك المدارس بلبنان وسوريا ، بل لعله لا يزال قائماً فيها إلى اليوم !

أما نصيب الأهالى من تلك الجريرة فهو انخداعهم فى أمر تلك المدارس وإقبالهم عليها ذلك الإقبال الشديد بدافع من العوامل التى أشرنا إليها . ولعل نصيب العهد التركى من هذه الجريرة ، والامتيازات الجنونية التى كان يمنحها فى سفه هو أسود الأنصبة الثلاثة جميعاً

٥ — على أننا خليقون ألا نفقد الأمل فى علاج هذا الشر وحسمه قبل أن يستشرى بالصورة التى استشرى بها فى تونس والجزائر ، فعلى الحكومات العربية واجب إنشاء المدارس التى تضارع تلك المدارس الأجنبية عظمة بناء وفخامة مظهر ، وعليها أن تنشئ المدارس الراقية فى كل مدينة وقرية لتعليم الفتاة ، وعليها أن تتولى هى أمر تعليم اللغات الأجنبية التى لا غناء عنها لنهضة الشرق ، على أن تتفق فيما بينها على ألا يتعلم الطفل أية لغة أجنبية إلا إذا تجاوز العاشرة أو الثانية عشرة من عمره ،